مصر والسودان

في التاريخ

للدكتور حسن كمال

أصل المصريين والسودانيين

كثرت المكاتبات والمخاطبات هذه الايام عن السودان وصلته بمصر وضرورته لها وحقها فيه . فاخذت مصر تنادي بوجوب احتفاظها بالسودان . لانه مشرف على مياه النيل ولان موقعه الجغرافي والحربي مهم . ولان خيراته كثيرة . ولان الصلة النسوية بين اهالي القطرين عظيمة متينة

والغريب ان معظم الباحثين في هذا الموضوع يبتون ابحاثهم بحوادث تاريخية او تجارية او زراعية مما يرجع تاريخه الى القرن التاسع عشر بعد الميلاد . وخصوصاً سنة ١٨٨٢ ايام ثورة المهدي لما كان المرحوم عبد القادر باشا حلمي حاكماً على السودان . لكن علاقة المصريين بتلك البلاد المترامية الاطراف ترجع الى اقدم العصور التاريخية المعروفة اي الى ابعد من سنة ٣٤٠٠ ق . م . نعم ان الحوادث الاستعمارية الاخيرة هي اقرب الى الذهن . واكثر تداولاً في المناقشات . الا ان ذلك لا يمنعنا من ان نسرد تاريخ علاقتنا بهذا القطر الشقيق تلك العلاقة التي امتدت الى اكثر من خمسين قرناً من وقتنا هذا

ان علاقتنا بالسودان لم تك لاجل الحصول على الذهب وجمع الارقاء كما يدعي بعضهم بل كانت من اجل صلة الرحم والوحدة التجارية والسياسية . قال ديودورس الصقلي : ان الاثيوبيين يقولون ان مصر مستعمرة من مستعمراتنا وان طين بلادها غرين من بلادنا ساقه النيل اليها وان بين عاداتنا وعادات المصريين مشابهة ظاهرة جلية فضلاً عن المطابقة بين القوانين الرابطة لنا ولهم وعن تشابه الزي في ملابس ملوك البلدين خصوصاً وان كلينا يتخذ الصل زينة فوق التيجان . قال نافيل هذه الرواية المؤيدة لمجيء المصريين من اثيوبيا كافية

بمفردها لاثبات ان اصل المصريين القدماء هم من بلاد العرب الجنوبية . لان في الرواية اشارة الى ان اولئك الفاتحين بعد ما هاجروا من وطنهم نزلوا على شاطىء البحر الاحمر في اثيوبيا في الاراضي المصرية واقاموا فيها زمناً قبل زحفهم على وادي النيل . فلما دخلوه واظهروا فيه مبادىء الحضارة انتحل الاثيوبيون وجهاً لدعواهم قائلين انها مأخوذة عنهم . وهذا بخلاف الواقع

فالمحقق ان قدماء المصريين بالقطر المصري اسسوا فيه المدنية والحضارة . فارتقى بذلك درجة رفيعة بين الامم وسادها حتى صار مضرباً للامثال . ولم ينس المصريون في وقت من الاوقات بلاد السودان التي كانت طريق مجيئهم الى مصر من بلاد العرب الجنوبية والتي اصبحت معمورة باقوام من نسلهم الاصلي المتحد بهم في القوانين والعادات واللغة والدين

وقد اثبت المرحوم كمال باشا ان اصل اللغة المصرية القديمة والعربية واحد وان الاختلاف الظاهر بين هاتين اللغتين ليس الا نتيجة اسقاط بعض كلمات في بلاد العرب وبقائها في وادي النيل والعكس بالعكس . زد على ذلك ما يعتري الالفاظ من القلب والابدال . وما يعتريها من التحريف بمعاملة الاجانب على مر الدهور .

فاذا كان هذا شأن السكان الاقدمين للقطرين المصري والسوداني . فلا غرابة اذا وجدنا على اقدم الآثار المعروفة ما يشير الى التعامل بين هذين القطرين — ذلك التعامل الذي كان يأخذ احياناً شكل منازعات وحروب ثم لا يلبث ان يرجع الحال الى اصله فيتحد القطران في المعيشة والمعاملة وتسودهما السكينة ويدرأ كلاهما الخطر المهدد للآخر

تاريخ السودان القديم — المرحلة الاولى — الضم

اثبتت لنا الحفائر الفنية الحديثة التي قام بها علماء الآثار بالسودان أن بلاد النوبة كانت مأهولة قبل عام ٣٤٠٠ ق . م . بنفس العنصر الذي ينتمي اليه سكان مصر القديمة . وعلى ذلك فان مدنية اهالي هذين القطرين واخلاقهم لا بد وان تكون واحدة وهذا يتمشى تماماً مع ما ألمعنا اليه سابقاً . وحوالي ٣٤٠٠ ق . م . اتحدت مملكة الوجه القبلي بمملكة الوجه البحري وتكونت منهما مملكة واحدة تحت ادارة مينا . ومنذ ذلك العصر اخذت المدنية والحضارة في القطر المصري تتقدم تقدماً سريعاً جداً حتى بلغت ذروتها في عهد الاهرام حين حافظت مدنية السودان على مستواها الاصلي الوضيع كما يستدل على ذلك من مقابر السودانيين وفنائر وفيها يتجسم الفقر بأجلى مظاهره . ومن ثم بدأت السيادة على وادي النيل تجمع تدريجاً في ايدي المصريين واصبح السودان تابعاً لمصر يأتمر بأوامرها وينتهي بنواهيها . وصار السودان يدفع الجزية السنوية لمصر في شكل ابنوس وعاج وجلد الفهد والصمغ والراتنج الخ

واقدم رواية تاريخية وردت عن اخضاع المصريين للسودان مدونة في حجر (بالرمو)

فقد جاء فيه ان الملك (سنفرو) غزا بلاد النوبة حوالي ٢٩٠٠ ق . م . وأسر سبعة آلاف اسير عدا الاغنام والعجول

وفي عهد الاسرة السادسة (٢٦٠٠ ق . م .) اشترك السودانيون (النوبيون) في خدمة الجيش المصري وبدأ امراء جزيرة الفيل يوفدون وفوداً تجارية الى صميم السودان . وفي اواخر الالف الثالثة قبل الميلاد اعترى اهالي النوبة السفلى تغير عظيم في ذلك الوقت زحفت اهالي السودان الاعلى واحتلت الاقليم الواقع بين الشلالين الاول والثاني وطبعت ذلك الاقليم بطابعها المعاشي والاخلاقي وانشأت فيه مدنية نوبية خاصة بلغت ذروتها في عهد الامبراطورية الوسطى (٢١٠٠ — ١٧٠٠ ق . م .) فبدأ النزاع يكبر والمشاحنة تتعاظم بين القطر المصري واهالي ذلك الاقليم . فأخذ الفراعنة منذ العائلة الحادية عشرة (٢١٠٠ — ٢٠٠٠ ق . م .) يحاولون اخضاع النوبة وفتح الطريق الى السودان . ولكن ذلك لم يتم الا في عهد الاسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ — ١٧٩٠ ق . م .) لما جعلت سمنة (جنوب وادي حلفا) حدّ مصر الجنوبي . وفي ذلك العهد كان السودان في قبضة المصريين وكان الجيش المصري حافظاً للنظام بما فشاد القلاع والحصون على جزر النيل وضفافه وبدأ المصريون يستخرجون الذهب بكثرة . وتسهيلاً للمواصلات بين القطرين الشقيقين شقّ المصريون طريقاً للسفن بين صخور الشلال الاول ايام الاسرة السادسة (٢٦٠٠ ق . م .) تحت اشراف المهندس المصري (اونا) ثم اعيد ذلك ايام الاسرة الثانية عشرة وبذلك تجنب المصريون مشقة الانتقال من سفن الى اخرى في جهة الشلال في تلك الصور السحيقة . والعجيب ان هذه القناة التي حفرها اجدادنا من آلاف السنين زالت آثارها واهمل امرها اهمالاً شائناً حتى قال الاستاذ بتري « انهُ لم يفكر احدٌ من المصريين قبلاً في عمل مثل هذا الطريق المائي الذي كان يبلغ عرضه ايام الفراعنة اربعاً وثلاثين قدماً وعمقه اربعاً وعشرين قدماً تسير فيه السفن المصرية مهما كبر حجمها . واصبح المصريون الحاليون يكتفون بشريط حديدي لنقل بضائع القطر من احد طرفي الشلال الى الآخر »

وجرت العادة ان القوات المصرية حيثما وجدت كانت تشيد معابد كبيرة ومراكز ينبعث منها النفوذ المصري الى سكان تلك الجهة — وهذه عين سياسة اوربا حتى من حيث تشييد المدارس والكليات في انحاء القطر . واقتضت الارادة الفرعونية ان يكون قائد الحامية ورؤساؤها وكهنة المعبد وخدمته وكتابه وعماله كلهم مصريين . وهؤلاء كانوا يبثون بين الاهالي السودانيين عاداتهم واخلاقهم وكان اهل السودان ينظرون الى المصري نظرة ممتازة لانهم كانوا يرونه متفوقاً عليهم في النظام والادارة والكتابة وسبل الدفع والتفاني في تنفيذ اوامر فرعون واطاعة ارادته

اما القلاع التي شادها المصريون فكانت شمال ابي سمبل لصيانة الطريق الموصل الى وادي

علاكي شرق السودان حيث يستخرج الذهب وايضاً في جهة وادي حلفا المعروفة قدماً باسم (بيهن) لصيانة حدود مصر الجنوبية. ولما تبوأ الملك سنوسرتي الثالث ويقال له ايضاً سيزوستريس (احد ملوك الاسرة الثانية عشرة) الحكم شاد قلعة جهة (سمنة) الواقعة على بعد اربعين ميلاً جنوب وادي حلفا جاعلاً ذلك الموضع حدّ مصر الجنوبي ونصب هناك لوحاً اثريًّا حظر فيه مرور السودانيين شمالاً برًّا وبحراً واستثنى من ذلك التجار ورسل الحكومة القائمين بأعمال رسمية وكان ذلك في السنة الثامنة من حكمه . وفي السنة السادسة عشرة من حكم هذا الملك نصب جلالته لوحين كبيرين حجريين احدهما في جهة (سمنة) والآخر في جهة جزيرة الملك وصف فيهما معاملته لاهالي السودان وطرق حربهم

ولم تعرف تلاً من منطقة السودان التي كانت تحت سيطرة ملوك الاسرة الثانية عشرة بالضبط وكان الاستاذ ماسپرو يظن ان النفوذ المصري كان ممتدًّا الى جنوب نهر عطبرة . وعليه ففرعون مصر كان ملكاً على جزيرة مروة من قديم الزمن . ولا يبعد ان يكون (سنوسرتي الثالث) قد اتبع سياسة آبائه واجداده في تلك الجهات وكان الذهب يُجلب من سنار بقوافل الى جزيرة مروة ومنها في الصحراء الى نبتة حيث يوضع في السفن وينقل الى القطر المصري في النيل

وكانت قلاع مصر جهة (نبتة) تتسلم من قبائل السودانيين جزيتهم التي كانوا يدفعونها سنويًّا للبيت المالك ثم ترسلها الى القطر المصري تحت اشراف رؤساء وضباط مصريين . اما التجارة بين القطرين وقتئذٍ فكانت مزدهرة كما ان المصنوعات المصرية كانت تتدفق على الاقطار السودانية بكثرة

ولما غزا الهيكسوس مصر اضمحلت ادارة القطر المصري في السودان . وضعفت سلطته عليه وامتنع هذا عن دفع الجزية لمصر . ولا تزال معلوماتنا عن تلك العصور قليلة جدًّا

وفي عهد الاسرة الثامنة عشرة (١٥٥٥ — ١٣٥٠ ق . م .) امتدت السلطة المصرية الى قلب السودان . فوصلت حدود مصر الى النهر الازرق . ويلخص ذلك في انه لما طرد احمس الاول الهيكسوس من مصر الى آسيا وجه همه الى السودان . فقاتل قبائله التي كانت تعطل التجارة وتعبث بالامن . وأجبرها على دفع الجزية . ولما تبوأ امنحوتب الاول (١٥٥٠ ق . م) عرش مصر غزا السودان ووصلت جيوشه الى جنوب الخرطوم . وكانت تعرف قديماً بأرض المواشي . كما ورد ذلك على لوحة حجرية يقال انها وجدت في جهة مروة . ومن ثم اقتنع المصريون بما للسودان من المقام والشأن من حيث تجارته وذهبه . فلم يستحسنوا ان تكون تجارته بأيدي حكام اقاليمه المحليين . وعليه اصدر جلالة الملك امنحوتب الاول امره بتعيين حاكم عام لذلك القطر . ولقّبه بحاكم الاراضي الجنوبية . وقلد ابنه تحوتمس الاول ذلك المنصب ثم لقبه بأمير (كوش) — وكوش هو الاقليم الواقع جنوب وادي حلفا . وقد اطلق عليه اليونانيون والرومانيون اسم (اثيوبيا) خطأ . وورد لفظ (كوش) بالكتاب المقدس . اما سكن هذا الامير فكان في

النوبة . الاَّ انه كان يأتي احياناً الى مصر تاركاً نائبه يقوم بعمله اثناء غيابه

ثم قسمت الاراضي الواقعة بين الشلال الاول والنيل الازرق الى عدة مديريات . لكل منها حاكم معين من قبل الملك ومسؤول امام امير كوش عن حوادث اقليمه وهكذا ادخل المصريون نظام وطنهم الاداري والسياسي في السودان بعد ما اعتبروه اقليماً من مملكتهم الاصلية

ولما تبوأ تحوتمس الاول عرش مصر سنة ١٥٤٠ ق. م. غزا بعض اقاليم السودان وانتصر عليهم انتصاراً مبيناً. وقد عثر على نقوش هيروغليفية جهة الشلال الثالث تتلخص في ان تحوتمس الاول اجتاز الصحارى واخترق الجبال فوصل الى بلاد وصفها بأنها لم تطأها اقدام اسلافه ولم ترها اعينهم

ولم نهتد حتى الآن الى هل شنَّ تحوتمس الثالث (١٥٠١—١٤٤٨ ق . م .) الغارة على بلاد السودان ام لا . لكن الثابت ان الحصون والقلاع والمعابد التي شيدت في عهد ذلك الملك فاقت كثيراً في العدد والضخامة ما شيده غيره من الفراعنة . واذا كان النفوذ المصري امتدَّ حقيقة في السودان الى الجهات التي ذكرها تحوتمس الثالث على احد صروح طيبة فلا يبعد ان يكون ذلك النفوذ قد بلغ اقصى حدوده ايامه . فقد ذكر نحو مائة وأربعين واثنين اسماً لاماكن بالسودان كانت كلها تحت السيطرة المصرية . ودلت الآثار على ان بلاد الصومال ، كانت تدفع جزية كبيرة الى تحوتمس الثالث في السنة العاشرة من حكمه لما انفرد بحكم مصر . ويظهر ان اهالي السودان اقتنعوا وتحققوا بأنهُ خيرٌ لهم ان يرسلوا جزيتهم طائعين غير مترددين الى فراعنة مصر بدلاً من المراوغة والمماطلة ، التي تثير غضب الفراعنة فيرسلوا جيوشهم على السودانيين عقاباً لهم على هذا التقصير . فكانت العلاقات بين القطرين الشقيقين وتثقر على غاية ما يرام . كما ثبت ذلك من النقوش والرسوم البارزة على جدران معبد صغير لتحوتمس الثالث في جهة (سمنة) . ويشاهد في هذه الرسوم المعبود (دد أون) احد معبودات السودان القديمة محتضناً تحوتمس الثالث ورافعاً ذراعيه فوق تاجه الملكي . وبالقرب منهما كاهن يخاطب المعبود (دد أون) قائلاً « لقد تبوأ ابنك تحوتمس الثالث عرشك وورث سدتك وجعل نفسه ملك الملوك في هذه الارض . فلن يتغير حكمه ابداً . فساعد روحه . واجعل هوله في قلوب قبائل السودان واقليم (نتيو) — الواقع جنوب الخرطوم الحديثة — » . ولا يخفى ان هذه النقوش والرسوم الدينية ذات تأثير معنوي عظيم في نفوس السودانيين ، لانهم لما عرفوا ان معبودهم (دد اون) منح لملك مصر ان يحكم بلادهم على هذا النحو ، لم يجدوا امامهم وسيلة يتذرعون بها للانفصال عن القطر المصري فحذوا حذو معبودهم ، نحو فرعون مصر — ويعتبر هذا العمل من الحركات السياسية الفذة في تاريخ الامم . وفي عهد امنحوتب (امنوفيس) الثاني (١٤٤٨ — ١٤٢٠ ق. م.) وصلت سلطة فرعون مصر الى النيل الازرق ، وشاد امنحوتب المذكور معبداً له بالجهة المعروفة

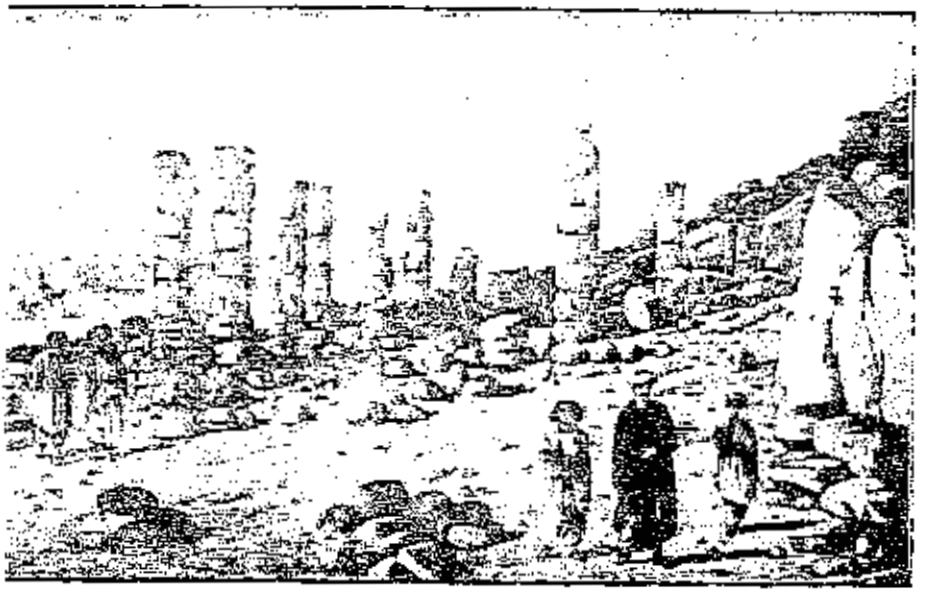

بقايا معبد طرهاقة

مدخل معبد طرهاقة (تيفونيوم) مدينة نبتة عند الشلال الرابع في السودان

الآن باسم وادي (باع النجا) حيث وجد تمثالان له في تلك الجهة . وكانت عاصمة السودان وقتئذ مدينة (نبتة) بالقرب من الشلال الرابع

وتغلغل النفوذ المصري في السودان وقتئذ حتى تمصر السودان تماماً ، فأصبح الخط الهيروغليفي الخط الرسمي واللغة المصرية القديمة لغة البلاد الحكومية . وشيدت معابد السودان لا تقل عظمة ولا روعة عن معابد طيبة الأثيراً . وعبد القوم في هذه المعابد معبودات المصريين ومعبود السودان (دد أون) السابق الذكر كما عبدوا أيضاً ملوك مصر مثل سنوسرت (سيزستريس) الثالث وغيره

ويرجع السبب في نجاح السياسة المصرية في السودان في تلك العصور الى ذكاء الحكام الذين كانوا يعينون برسوم ملكي ويلقبون (بامراء كوش) وكفاءتهم . وجرت العادة انهُ اذا شقت بعض القبائل عصا الطاعة على فرعون مصر ، يرسل هذا على جناح السرعة قوة حربية كبيرة تخضع الثائرين ثم ترجع الى مصر (بسلام) على حدّ قولهم . لذلك كان مركز حاكم السودان يتطلب حنكة وخبرة سياسية لهدىء روع السودانيين بعد ذلك العقاب وليجعل نفوذهم من النفوذ المصري ضمن حدود ضيقة . ومن اوائل حكام السودان الذين كانوا يعينون برسوم ملكي الامير (سن) ابن تحوتمس الثالث ثم الامير (نحي) ثم الامير (اوسرست) و(مري.س) و (هوى) وغيرهم . الى هنا انتهت المرحلة الاولى التي تلخص في ضم السودان الى مصر كجزء منها لا يتجزأ يأتمر بأوامرها وينتهي بنواهيها . ثم تبدأ المرحلة الثانية

المرحلة الثانية : الاستثمار

تبدأ هذه المرحلة — وهي مرحلة الاستثمار — في اوائل حكم الاسرة التاسعة عشرة (١٣٥٠ — ١٢٠٠ ق . م .) لما بدأ سيتي الاول يوجه همته الى استخراج الذهب من المناجم الواقعة في الصحراء الشرقية فحصّن القلاع واصلح الطرق الموصلة الى تلك المناجم . اما الطريق القديم الواصل الى هذه المناجم والذي كان يمتد من (ردسية) جنوب ادفو الى البحر الاحمر فكان غير صالح للسير فيه لعدم وجود مياه وآبار . ويبلغ طول هذا الطريق مائة وسبعين ميلاً لذلك اصلحهُ (سيتي الاول) وحفر الآبار اللازمة واول بئر حفرت كانت على بعد ستة وثلاثين ميلاً من النيل . وكانت غزيرة المياه فشاد (سيتي) حوارها معبداً وتحولت هذه البقعة تدريجاً بواسطة العمال الى مدينة صغيرة . ويستدل من نقوش قرية الردسية ان (سيتي الاول) فتح هذا الطريق القديم الى مناجم الذهب وحفر مناجم اخرى بجانب القديمة منها ونظم سير القوافل بين البحر الاحمر والنيل

قال رمسيس الثاني (١٢٩٢ - ١٢٢٥ ق . م .)[1] على لوحة حجر قُبَان انهُ حارب

(١) Prisse d'avennes, Monumels plate XXI

السودانيين وهجم عليهم كالنمر الغوي فسحقهم بقدميه كالثور الهائج مخترقاً مدينة (نبتة) التي كانت تسمى وتتشنو (كاري) . وانهُ فكّر في استخراج الذهب من جهة (اكيتا) فنجح نجاحاً عظيماً الاّ انه وجد صعوبات جمة في نقل ذلك المعدن الثمين الى النيل لان الطريق كان طويلاً شحيح المياه حتى ان وفيات عمال تلك المناجم بلغت النصف بسبب العطش . زد على ذلك الخسارة التي كانت تلحق الحيوانات وغيرها . لعلمهم انهم كانوا يستعملون القرب الجلدية لحفظ المياه الاّ ان مقدارها لم يكن كافياً لارواء ظمأ جميع العمال في ذهابهم الى المناجم ومكوثهم بها ورجوعهم الى نهر النيل . لذلك جمع رمسيس الثاني كبار دولته ومنهم امير كوش او حاكم السودان ليحثوا عن طريق لجلب الذهب من مناجم (اكيتا) . فقرّ الرأي على البحث عن المياه في تلك الجهة لتتمكن من الثور على بئر غزيرة المياه في طريق اكيتا لا يزيد عمقها على عشرين قدماً

وطريق (اكيتا) يبدأ من الدكة ومن ثمَّ الى وادي علاكي . ويلاحظ ان هذه المناجم بدأ العمل فيها ايام الاسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ — ١٧٩٠ ق . م .) ثم اهملت حتى الاسرة السابعة عشرة (١٦٠٠ — ١٥٥٥ ق . م .) . واعيد العمل فيها ايام البطالسة والدولة العربية . وذلك حتى القرن الثاني عشر بعد الميلاد ويجد السائح الآن في جهة وادي علاكي ادوات الحفر التي كان يستعملها العمال هناك لاستخراج الذهب وكان كثيراً في تلك الجهات

ولما تولى رمسيس الثالث الحكم (١١٩٨ — ١١٧٦ ق . م .) جعل همّه تشجيع التجارة مع السودان فأبدل القوافل التي كانت ترسل الى السودان لجلب المرّ والبلسم والحجارة الكريمة وغيرها بسفن خصوصية لشحن تلك الخيرات عن طريق البحر الاحمر . ولم يعرف بالضبط المكان الذي كانت ترسو فيه السفن على شاطىء الصومال . لكننا نعلم ان ميناء بالقرب من القصير هو الذي كانت تلك السفن ترسو فيه آتية من الصومال مشحونة بخيراته . وكان يرد على مينا القصير ايضاً معدن النحاس الذي كان يستخرج من جهة وادي المغارة وصربوت الخادم بشبه جزيرة طورسيناء وذلك في سفن خاصة ايضاً . كل هذه الواردات كانت تنقل من القصير الى قفط على ظهور الحيوانات مخترقة في سيرها وادي الحمامات وتشحن البضائع من قفط في سفن نيلية الى منف ومدن اخرى كبيرة والى بعض البلاد الجنوبية

وقد احدث هذا الطريق التجاري الجديد تأثيراً كبيراً في علاقة السودان بالقطر المصري فبعد ما كان اهالي القطرين يتعاملون بعضهم مع بعض شخصيًّا اصبحت السفن واسطة التعامل بين القطرين لذلك اضطرّ المصريون ان يشيدوا القلاع والحصون بالسودان محافظة على نفوذهم وتجارتهم فيه

ولا جدال في أن مشروع رمسيس الثالث المذكور آنفاً بفوائد تجارية عظيمة . فالمرقة في البحر الاحمر وطريق وادي الحمامات كادت تكون معدومة . زد على ذلك ان البضائع كانت

تنقل في زمن أقصر من المعتاد سابقاً وبقيمة اقل وتصل وهي في حالة احسن . ثم ان موت الهام والحيوانات وانهاك القوى كل ذلك اصبح في خبر كان . لكن يلاحظ ان هذا المشروع أضر بالنفوذ المصري في السودان كثيراً وخصوصاً ان رمسيس الثالث كان يعتقد ان التجارة أكثر فائدة من الحرب . فقد قال ما معناه : —

« كان رجال جيشي من مشاة وفرسان يسكنون المدن في عهدي ناعمين على ظهورهم بلا حرب في السودان وفي آسيا فكانت اسلحة الحرب موضوعة في حقائبها بالمنازل وكان الرجال يأكلون اللحوم الكثيرة ويتماطون المشروبات الوافية . ويعيشون مع زوجاتهم في راحة وسرور فلا يخافون تقلبات الزمن لان الفرح كان شاملاً قلوبهم وبالغاً منهم الدرجة القصوى (ترطاس هريس رقم ١ لوحة ٧٨ س ١٠ و ١١ و ١٢)

ولا بدَّ ان مالية الدولة المصرية كانت ايام رمسيس الثاني والثالث عظيمة جداً . وان مقدار الذهب الذي دخل القطر المصري كبيراً جداً . فقد وصف ديودورس الصقلي مقبرة يظن انها لرمسيس الثاني او الثالث قال انهُ شاهد فيها لوحة حجرية وقد رسم عليها الملك يقدم للمعبودات المقادير العظيمة من الذهب والفضة التي كانت تستخرج من المناجم سنوياً وتقدر بثمانين مليوناً من الجنيهات المصرية الحالية . وهذا الذهب كما لا يخفى كان وارداً من بلاد الحبشة واقليم النيل الازرق ومناجم وادي علاقي

ومنذ ذلك فقدماء المصريين هم أول قوم عرف فضل التجارة والتعامل بين الامم وهم اول من مهد لذلك بابتكار الطرق التجارية السهلة والمعاملات الدبلوماسية والوسائل الحربية وهم اول من عرف فصل الذهب وبذلوا غاية جهدهم في استخراجه مهما بعدت مناجمه عنهم صورة مطابقة لطرق استعمار اوربا لافريقيا في العهد الحاضر

ومنذ حكم الاسرة العشرينية (١٢٠٠ — ١٠٩٠ ق . م) بدأ النفوذ المصري يضمحل وظهرت على حكام اقاليم السودان اعراض القوة والرغبة في الاستقلال والانفصال من القطر المصري وهكذا ندخل في المرحلة الثالثة من تاريخ السودان القديم

المرحلة الثالثة : تفوق السودان

في القرن العاشر ق . م . بدأت دلائل الافلاس تظهر على خزينة (آمون رع) بطيبة فسر على كهنة ذلك المعبود ان يقوموا بالاحتفالات والشعائر المتبعة واضطروا الى ان يبحثوا عن المال . ويرجع هذا الافلاس الى عدم شهر الحروب في آسيا والسودان — وقد كانت تعود بالغنائم الكثيرة على المعابد المصرية — والى عدم دفع تلك البلاد الجزية للخزانة المصرية . فاضطر رمسيس التاسع (حوالي ١٠٠٠ ق . م) ان يزيد في الضرائب

على المصريين لجمع المال اللازم. بعد ذلك اعلن الوجه البحري استقلاله عن الوجه القبلي وأخذت الحال في الوجه القبلي تتغير من سيء الى أسوأ حتى سنة ٩٦٠ ق . م لما تولى الملك شيشنق الاول عرش مصر . وشيشنق هذا هو اول ملوك الاسرة الثانية والعشرينية ، وهو المذكور في التوراة باسم شيشاق وهو ابن الرئيس اللوبي (بيواوا) توصل الى الملك عن طريق والدته المصرية العريقة النسب وتوفي شيشنق وتولى الملك بعده ابنه اوسوركون الاول ، وهذا ارسل ابنه (أوبت إحا) كاكماً على السودان، وجعل مركزه مدينة طيبة ، فبدأ هذا الحاكم في عمل التصليحات والترميمات ، لكنه وجد نفسه عاجزاً عن منع سرقة المقابر الملكية ، فصمم على جمع جثث الملوك السابقين في مكان واحد امين بالدير البحري ، حيث بقيت الجثث محفوظة سبعة وعشرين قرناً ، الى ان اكتشفها المرحومان احمد كمال باشا واميل بروكش وذلك في يوم الاربعاء ٦ يولية سنة ١٨٧٩ ميلادية

وجرت العادة ان الكهنة كانت تذهب الى المقابر الملكية لتقيم الصلوات وتقدم القرابين صباحاً ومساء ، فلما نقلت الجثث الملكية على الطريقة المذكورة اصبح معظم كهنة طيبة عاطلين فاتضح للقوم عجز هؤلاء الكهنة عن المحافظة على مزاتهم وكرامتهم ، وبدأ الاهالي يملون عبادة (امون رع) ويعكفون على (ازوريس) فبدأ بعد هذا الاخير بالبلبا يطو شأناً ويرتفع مقاماً وذلك بمساعدة (اوبت)

ثم ايقن كهنة (امون رع) ان ايام مجدهم انقرضت وان لا مناص لهم من الهجرة الى محل أوفق لهم من طيبة . فلما رأوا الوجه البحري مقفلاً في وجوههم عمدوا الى الجنوب فوجدوه مفتوحاً امامهم ورأوا ايضاً معبودهم (امون رع) يعبد هناك ورأوا مصريين كثيرين عائشين بالسودان وعلى الاخص بين الشلال الاول ونبتة عاصمة السودان القريبة من الشلال الرابع ومدينة نبتة كانت مركزاً عظيماً لعبادة (امون رع) وهي واقعة في اقليم دنقلة الذي اشتهر من قديم الزمان بخصب التربة وبكونه محطة للقوافل التي كانت تسير بين مصر والسودان

فبناء عليه قرر كهنة (امون رع) في طيبة الهجرة الى نبتة . فجمعوا موميات أجدادهم ودفنوها في محل مخصوص كما فعل (اوبت) بالموميات الملكية . بعد ذلك بدأوا يهجرون طيبة متجهين نحو نبتة . ومؤملين أن يقابلوا هناك بالمساعدة اللازمة والاكرام اللائق بهم

ولما وصل كهنة أمون بلاد النوبة بدأوا يراقبون سير الحوادث في القطر المصري ، ويشتغلون في نبتة طي الخفاء . ويتحينون الفرص لحمل ملك السودان على غزو مصر ووضع حدّ لذلك النزاع القائم بين حكام اقاليمها العديدين . وكان كهنة (امون رع) على الدوام اليد المحركة لادارة شؤون القطر المصري بالسودان من سنة ١٦٠٠ — سنة ١٠٥٠ ق . م . ايام الفراعنة العظام . فلما هاجر هؤلاء الكهنة الى السودان تذرّعوا بنفوذهم الديني ليؤثروا في

قة حجر أثري للملك يخنحي السوداني وقد رسم عليه الملك وهو يتقبل خضوع تسعة امراء
مصريين وليبيين في حضرة المعبود (امون) والمعبود (موت)
وقد عثر على هذا الحجر ضابط سوداني مجهول الاسم

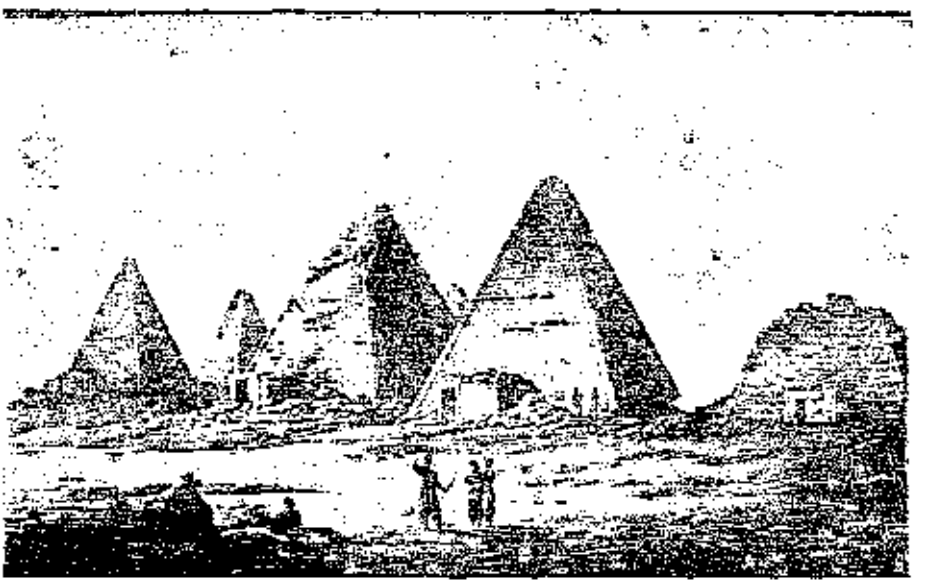

اهرام جبل برقل (نبتة) في السودان كما كانت سنة ١٨٢١ م

(مصر والسودان في التاريخ)

ملوك السودان وتكون لهم الكلمة العليا في ادارة شؤونه . فجعلوا يقنعون حكام السودان بان ادارة (امون) هي الادارة العليا . وانه هو المعبود الوحيد الذي يعيّن الملوك ويدبر البلاد بأوامر يصدرها إلى كهنته . وان في امكانه ان يجعل ملك السودان سيد القطر المصري وسائر العالم . فنجح مشروعهم حيث وجد بالسودان ارضاً خصبة . تنبت فيها بسرعة بذور حيلهم ودهائهم

وأول ملك سوداني ادعى السلطة على مصر هو (كاشتا) . وقد ورد اسمه مكتوباً في خانات ملكية . وملقباً بلقب « سلطان » و « ملك الوجه القبلي » و « سيد القطرين » . ولفظ كاشتا يدل على انه نوبي وليس مصري . وكان هذا الملك متزوجاً بملكة تدعى (بانما) رزقت منه بولدين أحدهما (يعنخي) والآخر (شاباكا) . ولم نعلم عن تاريخ (كاشتا) شيئاً إلا أن له نفوذاً على الوجه القبلي . وانه أدار شؤون طيبة بمقدرة وكفاءة . وذلك في أوائل القرن الثامن قبل الميلاد . ثم توفي وحكم بعده يعنخي في (نبته) من سنة ٧٥٠ ق . م : إلى سنة ٧٤٠ ق . م . وغزا القطر المصري . واظهر من البسالة والرأفة بالمصريين ما يستحق الاعجاب . ووجدت أعمال هذا الملك مدونة على أثر عظيم بالسودان مع آثار أخرى خطيرة الشأن . استدل منها على كيفية اخضاع اقاليم الوجه البحري والقبلي بجيش (يعنخي) واسطوله . وبعد ما طهّر (يعنخي) مصر من عصاتها ، رجع إلى وطنه واستقرّ في مدينة (نبته) . ونقل اليها تخت الملك بعد ما كان في طيبة ومنف . وصارت مصر ولاية سودانية . ثم توفي وورثه أخوه (شاباكا) أول ملوك الاسرة الخامسة والعشرين وذلك سنة ٧١٢ ق . م .

ولم تدم السلطة السودانية في مصر اكثر من مائة سنة لأنه في سنة ٦٤٥ ق . م . انكمشت الدولة النوبية في وطنها الاصلي . وصار حدّها الشمالي (كونوسو) وهي مجموعة جزر صغيرة في النيل واقعة شمالي جزيرة (فيلة) . وهذه اسمها بالعربية (يلاق) . واصله بالقبطية (يلاخ) أي الركن . وبالمصرية القديمة (يلاق) ايضاً .

والباحث في تاريخ المملكة السودانية يرى أنها ارتفعت واستقلت ثم ضمت اليها القطر المصري وطمحت الى التدخل في شؤون الدول الاجنبية . فأرادت استعمار آسيا . وظهرت في ذلك الحين المملكة الآشورية القوية . فاكتسحت المملكة السودانية اكتساحاً . وصدمتها صدمة كانت القاضية على كيانها وحيتها . قال المؤرخون ان كل مشروع قام به ملوك السودان للدفاع عن وادي النيل ضد آشور حبط حبوطاً تاماً لضعف السودانيين وجهلهم بالسياسة ويستثنى من ذلك دفاع طهراقه لأنه تمكن من صد آشور مرة عن حدود مصر . وحفظ كيان مملكته زمناً يسيراً . إلاّ انه اضطرّ في آخر الأمر ان يولي ظهره جيش آشور جبناً وضعفاً . وقصارى القول ان مقاومة السودانيين للاشوريين بمصر كانت ضعيفة ضعفاً لا يقابل بسلطة الفراعنة الاقدمين .

الذين كانوا مثال الشجاعة والشرف وحب الوطن. وفي سنة ٥٩٠ ق. م. حاول بسامتيك الثاني أن يغزو أعالي السودان. وفي عام ٥٢٥ حاول قمبيز أن يخضع السودان أيضاً لكنه لم يفلح. من ذلك الوقت دخل تاريخ السودان في طور الاضمحلال واكتنفه الغموض. وانتقلت عاصمته من نبته (جوار الشلال الرابع) إلى (مروة) شمال الشلال السادس والخرطوم. وذلك حوالي عام ٣٠٠ ق. م. وبدأت الحضارة المصرية في السودان تضمحل. وتدرَّج الخط الهيروغليفي الى الخط المروي الذي بدأ استعماله كخط البلاد الرسمي في مبدأ العهد المسيحي

وفي عهد اليونان (البطالسة) والرومان كان حد مصر الجنوبي جوار (قرته) مركز الدر، وذلك عند مدينة قديمة اسمها (أوفدوينا) او (أوفدونيا)، بالقرب من معبد الحرقة. و(أوفدوينا) هذه كانت تعرف قدماً باسم (Hiernakonmos) وتعني الجزيرة المقدسة. لكن حدث بعض الاحيان أن ذلك الحد نقل جنوباً الى أبريم. وابريم هذه كانت تعرف قديماً عند الرومان باسم (Primis). وهي مركز حربي عظيم. وتذكرون حضراتكم ان السلطان سليم الاول وضع حراساً من أهل البوسنة هناك. وذلك في القرن السادس عشر. وان المماليك الذين هربوا عام ١٨١٢ التجأوا اليها. لكن ابرهيم باشا هجم على القلاع هناك فأبادها وذلك في نفس السنة

وفي عام ٣٥٠ ب. م. غزا السودان ملوك الحبشة، وكانت عاصمتهم وقتئذٍ (اكسوم) وأسسوا بذلك مملكة مروة. ودخلت المسيحية جزيرة فيلة في القرن الرابع بعد الميلاد ثم فشت في النوبة حيث شيدت الكنائس. وفي سنة ٦٤٠ وقعت مصر واعالي نهر النيل في قبضة العرب. ووصل عمرو بن العاص الى دنقلة وفرض عليها الجزية. وفي عام ١١٧٣ م. استولى (شمس الدولة) اخو (صلاح الدين) على قلعة ابريم. وفي ذلك الوقت اكتسح الاسلام المسيحية. وفي عام ١٨٢١ غزا اسماعيل باشا السودان مندوباً عن والده المغفور له محمد علي باشا وتعرفون حضراتكم ان اسماعيل باشا قتل غدراً عام ١٨٢٢ في جهة (شندي) بالسودان

الخاتمة: نتائج عامة

والآن وقد شرحت تاريخ السودان القديم وعلاقته بالقطر المصري منذ الزمن السابق للملك مينا الى أوائل القرن التاسع عشر يجدر بنا ان نستنتج مما قيل بعض الحقائق والمعلومات. لان التاريخ يعيد نفسه ولان ما يجري الآن بخصوص السودان ما هو الا تكرار لما حدث منذ آلاف السنين

معلوم ان المصريين والسودانيين من اصل واحد استوطنوا وادي النيل بعد ما هاجروا بلاد العرب الى الصومال. ومعلوم ان خصال هؤلاء القوم وطبائعهم واحدة. لأن ذلك أمر موروث يمتاز به عنصرهم عن سائر العناصر. فهم بطبيعتهم جنس مسالم قليل الجشع والطمع. كثير الاحترام للعوائد الدينية. أليف. سريع الفهم. عزيز النفس. بهم السجايا والصفات تشهر

بين الأمم على توالي الاحيان . ومعلوم أيضا أن وادي النيل من حيث موقعه الجغرافي أشبه شيء بواحة كبيرة في وسط صحاري واسعة شاسعة . فهو محدود شمالاً بالبحر الابيض المتوسط وشرقاً وغرباً وجنوباً بصحاري

ولهذه العزلة تأثير كبير على مدنية وادي النيل وحضارته . لان المدنية في نظر بعض الفلاسفة نتيجة المعيشة في الاودية حيث تكثر الزراعة والفلاحة وحيث يحتاج الانسان الى تفكير لابتكار طرق الزراعة وتنظيم الري وتشييد المساكن وهذه الشروط لتوافرها أشد توافر في وادي النيل أنتجت تاجاً حسناً . واظهرت للعالم من الحضارة والارتقاء ما أدهش العقول وحيّر الالباب

وقد أثبت المرحوم احمد كمال باشا في معجمه الضخم إن أصل اللغة المصرية القديمة واللغة العربية واحد . وأن الاختلاف الظاهر في هاتين اللغتين ليس إلاّ نتيجة لاسقاط بعض كلمات في بلاد العرب وبقائها في وادي النيل والعكس بالعكس ، زد على ذلك ما يعتري الكلمات من قلب وابدال ، وما يصيبها من تغير بمعاملة الاجانب على مرّ الدهور

وهكذا اظهر لنا التاريخ ان مصر والسودان امتان مكملتان ومتممتان الواحدة للاخرى ، فما ينقص من احدهما تكمله الاخرى ، وما تعجز عنه واحدة تقوم به الثانية ، ولولا ذلك التضامن لما ظهرت مدنية ولا حضارة بوادي النيل ، فعلاقة السودان بمصر اشبه شيء بعلاقة بلاد (وليس) أو (النال) بانكلترا . فكما ان حاكم السودان كان ولي عهد المملكة المصرية كذلك ولي عهد انكلترا لا يزال يلقب بأمير بلاد (وليس)

ولا أدل على تعمّر السودان من اسمه المصري القديم . فان المصريين سموه قديماً (نوب) وحرّف القوم هذا اللفظ بعد ذلك الى (نوبه) أو (نوبيا) . و (نوب) بالمصرية يعني (الذهب) فبلاد النوبة تعني بلاد الذهب أو بلاد الكنوز كما يسميها أهاليها الحاضرون

ووردت على لوحة حجرية وجدت بالكرنك من عهد تحوتمس الثالث (١٥٠١—١٤٤٧ ق.م) مدحة نثرية وشعرية مقالة على لسان (امون) معبود طيبة في حق تحوتمس المذكور تعتبر اجمل انموذج للآداب المصرية . جاء في ذيلها ما تعريبهُ : —

« ها أنا قد جئت وابحت لك ان تضرب متوحشي النوبة . وليكن الجميع حتى اقوام (شات) تحت تصرف يدك مستعدين لمددك فقد اريتهم جلالتك كما ينظر الاخ الى اخويه فيحنوان عليه وتجتمع ايديهم اليك ليشدوا عضدك » . ان تشبيه القطرين المصري والسوداني بشقيقين يحنو كل منهما على الآخر ويشدّ ازره في شد عضد فرعون مصر بعبارة لا تقبل الشك ولا الجدل لهو دليل قاطع على ان القطرين الشقيقين كانا من اقدم العصور كما هما الآن قطرين مكملين ومتممين الواحد للآخر